بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لله الحمدُ من قبلُ ومن بعدُ، فهو المحمودُ في كلِّ وقتٍ وحين، والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ الخاتِم الذي هدانا اللهُ به لأقومِ طريقٍ.

وبعد،،

فهذه رسالةٌ علميّةٌ ودراسةٌ منهجيَّةٌ تدورُ أبحَاثُها حول فقيه الفلاسفةِ وفيلسوف الفقهاء، الإمامُ العالم اللغوي الطبيب «ابن رشد الحفيد» الذي شغل بفلسفتهِ الفكرَ الإنساني في الشرق والغرب، وما زال يشغله حتى هذا الوقت، رغم مرور أكثر من تسعمائة عامٍ على رحيله، فاحتفلت دولٌ كثيرة وأقامت ندوات ومهرجانات احتفاء بمرور أكثر من ثمانية قرون على رقدتهِ في رَمْسِهِ، ومن بين هذه الدول، تونس، والجزائر، ومصر، وألمانيا، وفرنسا، وأسبانيا، والمغرب، والعراق، وغيرها من البلدان التي احتفت بفكره، وعقله، وفلسفته.

والدراسةُ التي نقدمُ لها هي في الأصل رسالة «دكتوراه» للمفكر الفرنسي الشهير «إرنست رينان» ورغمَ أنه لم يكن متخصِّصًا في الفلسفة العربية إلا أنه - كما يقول جورج قنواتي - كان رجلًا واسع الأفق، مثقفًا ثقافةً عاليةً، وقدْ حاولَ أن يُلْقي على مذهب «ابن رشد» وعلى تأثيرِهِ في الغرب - أي على الرشدية اللاتينية - ضوءًا أعطى لبحثه أصالة بالنسبة للزمنِ الذي كُتبَ فيه.

ولئن كان قد مضى على كتاب «ابن رشد والرشدية» ما يربو على قرن إذ أنه طبع أول مرَّة سن 1852م، فإني أعتقدُ أنه يوجَدُ فيه معلوماتٍ وأفكار تساعِدُ على فهم الفلسفة الرشدية وروحها.

وقد عَوَّل «رينان» في وضع «رسالته» على مؤلفات ابن رشد التي تُرْجمت إلى اللاتينية والعبرية، وإلى ما بقيَ من أصلها العربي.

وقد نَقَّحَ كتابَهُ في الطبعات المتوالية، واستفاد من الملاحظات التي أبداها علماء مثل «موللر» و«أماري» و«دوزي» كما أنه أعطى في آخر الكتاب نصوصًا عربية لبعض الوثائق التاريخية خاصةً بـ«ابن رشد»، فهو كتاب تاريخي موثَّق بناهُ على جزأين:

الأول: ابن رشد، قسمه إلى فصلين:

الفصل الأول: حياة ابن رشد ومؤلفاته، الفصل الثاني مذهب ابن رشد.

أما الجزء الثاني فكان عن «الرشدية»، وجعله في فصولٍ ثلاثة:

الفصل الأول: الرشدية عند اليهود.

الفصل الثاني: الرشدية في الفلسفة الاسكولائية.

الفصل الثالث: الرشدية في فلسفة أو مدرسة «بادوا».

وقد خصصَ «رينان» بحثًا خاصًا لمؤلفات «ابن رشد» وشروحه لأرسطو وطريقة تصْنيفها، كما أنه أورد، كذيول، في آخر كتابه، نصوصًا كانت غير مطبوعة في زمانه مثل حياة «ابن رشد» عند ابن الأنبار، والأنصاري، وابن أبي أصيبعة، والذهبي.

وقد ترجمَ هذا الكتاب «ابن رشد والرشدية» شيخ المترجمين الأستاذ العلامة «عادل عمر زعيتر»، وهذا ما يدعونا أن نقفَ وقفات موجزة مع المؤلف، والمترجم، و«ابن رشد» ليكون القارئ على بينةٍ من أمرِ هذا البحث.

وقفة مع «رينان»

ولد «إرنست رينان» في 28 فبراير سنة 1823م ببلدة «تريحية»، وهي بلدة صغيرة على مقربة من القنال الإنجليزي، وعندما بلغ الخامسة من عمره مات أبوه، وهو العائل الوحيد للأسرة، وتولت تربيته أخته «هنرييت» التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها، والتي وُصِفَت بأنها «قوية العزيمة» حيث إنها أنشأت مدرسة لتعليم البنات في قريتها الصغيرة، وكانت تخص أخاها «إرنست رينان» بعنايتها وتوجهه في دراسته وتعينه من الناحية المادية، حيث إنها وجدت فيه النبوغ المبكِّر، والذكاء الشديد، وعندما بلغ الثامنةَ من عمرِه ألحقَ

obeikan.com

بمدرسة لاهوتية في بلدته، وكانت أخته وأحد القساوسة يتعاونان في دفع المصروفات المدرسية، لكن سرعان ما أراحهما من ذلك بحصوله على منحة دراسية صغيرة.

تعلَّم اللاتينية، ثم تلقى العلم في معهد «القديس نيقولا»، ثم خلع الثوب الكهنوتي وصار خليفة «فولتير» في نقد تاريخ الديانة اليهودية والدين المسيحي، وفي سنة 1862م، عين «رينان» أستاذًا اللغات السامية بـ«الكوليج دي فرانس» وأزعجت أولى محاضراته «رجال الدين» في فرنسا، فمُنِعَ من إلقاء المحاضرات، وأصدرت السلطات أوامرها بعدم الاستمرار في إلقاء هذه المحاضرات، فتلقى هذا الأمر بهدوئه الفلسفي ودعا طلابه للذهاب إلى بيته ليلقي عليهم الدروس التي مُنِعَ من إلقائها في الكلية، فظلَّ يلقيها عليهم عدة سنوات.

وفي هذه الفترة أتم «رينان» كتابهُ «حياة المسيح» الذي ظهر سنة 1863م، ولقى الكتاب إقبالًا ورواجًا، ولكنه أغضب رجالَ الدين، فسعوا سعيهم عند الإمبراطور «نابليون الثالث» حتى حرمه من كرسيه الجامعي، واقترح وزير المعارف تعيين «رينان» في وظيفة «مساعد مدير قسم المخطوطات» في المكتبة الإمبراطورية للإفادة من علمه، لكن «رينان» رفض قبول هذه الوظيفة، واستمرَّ في كتابة الأجزاء الأخرى من كتابه «حياة المسيح».

ومع ذلك فإن كتاب «ابن رشد والرشدية» له بريق خاص لدى «رينان» فهو الأطروحة التي حصل من خلالها على الدكتوراه في الآداب، وهي التي مكنته من أن يكون صاحب مكانة بين المستشرقين.

وعنده، أن «ابن رشد» أضاف إلى ما استمده من الترجمات العربية لأرسطو «المنقولة عن السريانية آراء جديدة من عنده، وأوجد مدرسةً من مدارس الفكر التقدمية أثَّرتْ عدة قرون في التفكير الأوروبي تأثيرًا شديدًا، ودَلَّ ذلك على تعمقه في دراسة فلسفة العصر الوسيط وسعة إطلاعه وتنوع معلوماته. وقد لقي كتابه «ابن رشد والرشدية» رواجًا ملحوظًا بعدما أقدم على طباعته.

الثناء عليه

كان «إرنست رينان» أحد كبار ممثلي الثقافة الفرنسية المعدودين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو بوجه عام في طليعة المؤرخين الذينَ لمعَ اسمهم في ذلك القرن،

حتى قال عنه الناقد الفرنسي المعروف «جيل ليمتر»: «لم يشغل كاتب من الكتاب أكثرَ معاصريه تشددًا وأصعبهم إرضاء، ويغشى أخيلتهم ويزعجهم ويَسُرهم مثل «رينان»، وسواء خضعنا لجاذبيته أو قاومناها، فإنه لم يستولِ أحدٌ على تفكيرنا استيلاءَهُ، ولم يتمكن من نفوسنا تمكنه».

واسم «رينان» أشارَ إليه الشاعر الكبير «حافظ إبراهيم» في رثائه للشيخ الإمام «محمد عبده» منوهًا بمواقفه في الدفاع عن الإسلام بقوله:

وَقَفْتَ لها «نوتو» و«رينان» وَقْفَةً أمـدَّتـكَ فيها الـرُّوحُ بـالـنَّـفَـحَـاتِ

ومهما يكن من أمره، فإن مؤلفاته التاريخية، وفصوله الأدبية والفلسفية لا تزال محتفظةً بقيمتها الفنية، ولا يزال قراؤها يجدون فيها المتعة والفائدة برغم ما استهدفت له من مراجعة ونقد.

مع شيخ المترجمين

من عادة شيخ المترجمين العلامة «عادل عمر زعيتر» أن يختار النافع من المكتبة العالمية ليقوم بترجمته، وبخاصة لدى المرموقين من أعلام فرنسا ومثقفيها.

وقد جذبَ كتاب «ابن رشد والرشدية» العلامة «زعيتر» فقرأه وأعجب بمادته، وأراد أن ينقله إلى لغة قومه لعلهم يدركون أن حضارة الغرب قامت على أكتاف أسلافنا وفلاسفتنا.

وقد أثنى الدكتور «جورج قنواتي» على ترجمة الأستاذ «عادل» ونقدها نقدًا بناءً، وكان مما قال:

«أما ترجمة الأستاذ «زعيتر» إلى العربية لكتاب «ابن رشد والرشدية» فهي بليغة بلا شك وعادةً أمينة، غير أن هناك بعض هفوات ناتجة من عدم فهم دقائق اللغة الفرنسية أو بعض المصطلحات الخاصة بالمخطوطات اللاتينية، ومن المستحسن أن يُسْتعان بالأصل الفرنسي مع الترجمة العربية.

والأستاذ «زعيتر» نشر أيضًا النصوص اللاتينية والإيطالية الباقية ولكن لم يترجمها إلى العربية تاركًا ذلك للباحثين المختصين بالموضوع» وهذا النقد لا يقدح في عمل العلامة «زعيتر» لكونه أستاذًا بارعًا في مجال الترجمة.

وتصديقًا لهذا القول فقد ذكرتُ ثناء كبار المترجمين لترجماته وإعجابهم بلغته وبلاغته، وذلك عند تقديمي لكتاب «العقد الاجتماعي» لـ«جان جاك روسو»، والذي ترجمه الأستاذ «عادل زعيتر» فقد قال الدكتور «وديع فلسطين» أستاذ علم الصحافة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وأحد العاملين في مجال الترجمة.

«إذا كنتُ كقارئ عادي أحملُ لـ«عادل زعيتر» أسمى آيات الإعظام على فضلِه العلمي السخيِّ، فإنني كمترجم عانى مشاق النقل والتقريب.. أرفع «عادل زعيتر» لمراتب قَلَّ أن يبلغها غيره من عُتَاةِ المترجمين في أي لغة سواء من حيث ضخامة العمل الذي أنجزه ولم يمهله القدر لإتمامه أو من حيث الجودة في الاختيار والإبداع في الترجمة».

رحمه الله وأعاننا على إعادة نشر مترجماته لينعم بها المثقفون.

ابن رشد في كلمات

ولأن الكتاب عن «ابن رشد والرشدية»، فلن أقولَ أكثر مما يلي:

إن «ابن رشد» واحد من أكبر رجال حضارتنا الإسلامية، نشأ نشأة دينية جعلته يفكِّرُ تفكيرًا مُلحًا في الصلة القوية بين الفلسفة والشريعة، فهو كفقيه إسلامي كبير يؤمن بالشريعة الإسلامية صحةَ نظر، وصدق استدلال، وجزالة نفع، وهو كفيلسوف مفكر يؤمن بحرية العقل، وسلامة المنطق، وجودة القياس، يرى أن طريقَ الفقه لا يتناقض - في حقيقة الأمر - مع النظر الفلسفي في شيء، وما يبدو للوهلة الأولى من التعارض الظاهري لا يعدم طريق التوافق الموصل إلى الاطمئنان النفسي لدى عُشاق النظر الصائب، فالمقطوع به في نظر «ابن رشد» أن كل ما أدى إليه البرهان الصحيح لا يمكن أن يخالف ما جاء به الشرعُ الحنيف، لأن الحق لا يضاد الحق، بل يشهد له ويقومُ به، ومع كل هذا، فهل استطاع «ابن رشد» مع إمامته في الفقه وريادته في البحث الفلسفي أن ينجو بنفسه من مكايد الحاسدين.

لقد كان الرجل محسودًا على عقلة الصائب، ونظره الواسع، وعمقه الدقيق، فتآلبت عليه عناصر الشرِّ، لتميل بالحق إلى غير وجهه، فنسبوا إليه من الأقوال ما لم تصح نسبته إليه، واقتطعوا من كتبه الفلسفية ما يوهم المروق والإلحاد، وعمدوا إلى الدَّس الحقير، حين أبلغوا حاكم البلاد أن «ابن رشد» قد انتقص من قدره حين قال في أحد دروسه: إنه «ملك

البربر»، وتلك كبوة ما نظن أن مثل هذا الفيلسوف الكبير يقولها، لاسيما وأنه يعرف قدره عند هذا الحاكم، لكنه الاختلاف الآفك الذي نجح بفعل حاسديه أن يتمكن من صدر أمير البلاد، فحدثت الجفوة الشديدة التي أوصلته إلى محاكمة جائرة أدت به إلى الطرد والنفي مع نفر من تلاميذه اتهم بسببه بالإلحاد والمروق، وكان أن قاسى الأمريْن، ثم تحقق الأمير بعد مدة طويلة فسادَ ما نُسِبَ إلى «ابن رشد» من افتراء، فعمل على تقريب الفيلسوف الفقيه، وأصدر أمره بالعفو عنه، فلم ينعم «ابن رشد» بهذا العفو غير أيام يسيره لكبر سنه، وشدة ما عانى من الأوصاب والآلام الجسدية والنفسية، فاشتدت علته التي أسلمته للموت بعد جهاد عنيف.

فوقف الموت حائلًا دون اقتراب الشمل وإعادة الصفاء، فجاء العفو متأخرًا، فصدق قول الشاعر:

أَتَـتْ وحِـيَـاضُ الـمـوْتِ بيني وبينها وجَـادتْ بوصْل حينَ لا يَنْفَعُ الوَصْلُ

رحم الله فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء.

عملي في الكتاب

- قدَّمتُ للكتاب بالدراسة السابقة معرفًا به ومتحدثًا عن مؤلفه ومترجمه بصورة موجزة.
- تركت تعليقات المترجم كما هي، وحذفتُ النصوص التي بقيت من غير ترجمة من العبرية والإيطالية لعدم إفادة القارئ العربي.
- سائلًا الله أن يعين على إخراج النافع من ترجمات العلامة «عادل عمر زعيتر» ونشرها بصورة تليق بها.

والله ولي التوفيق

عادل عبد المنعم أبو العباس

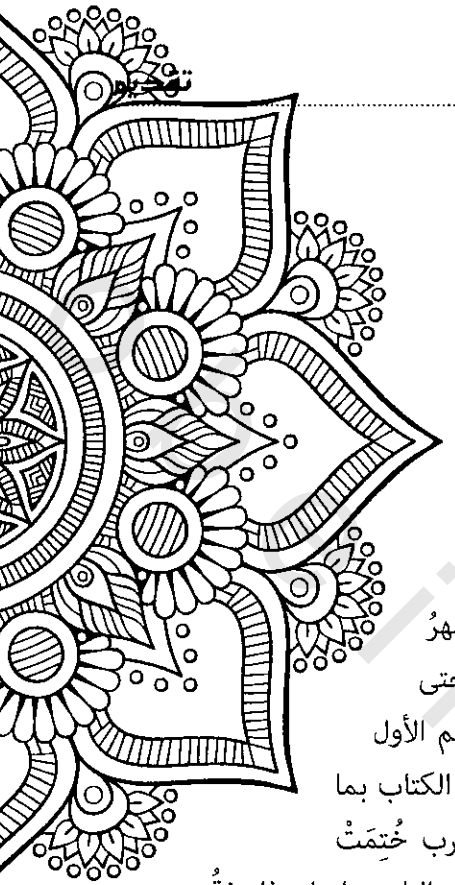

مقدمة المترجم

أُقَدِّم ترجمة كتابِ «ابن رشد والرُّشدية» للفيلسوف الفرنسيّ المشهور «إِرْنِسْت رينان».

والكتابُ عَرْضٌ تاريخيّ لحياة ابن رشد ومذهبه وما اعْتَوَرَ «الرُّشْدية» من تطورٍ في أوربا.

وفي هذه المقدمة لا نترجم لابن رشدٍ الذي هو أشهرُ فلاسفة العرب وأعظمُ شارحٍ لفلسفة أرسطو عَرَفَه العالَم حتى أيامنا، وذلك من غير فَنَاء ابن رشد في شخصية هذا المُعَلِّم الأول الذي خالف كثيرًا من آرائه، فالأمرُ قد فَصَّله رينانُ في هذا الكتاب بما فيه الكفاية، وإنما نقول إن الدِّراساتِ الفلسفيةَ عند العرب خُتِمَتْ بابن رشدٍ وإن فلسفة ابن رشد انتقلت إلى أوربا حيث أقبل الناس عليها، وفلسفةُ ابن رشدٍ، على الخصوص، هي أكثرُ ما يَسْبِقُ إليها الذهن عند النظر إلى قول ابن خلدون في مقدمته: «بَلَغَنا لهذا العهد أن هذه العلومَ الفلسفية ببلاد الإِفْرَنْجة من أرض روما وما إليها من العُدْوة الشمالية نافقةُ الأسواق، وأن رسومَها هناك متجدِّدَةٌ ومجالسَ تعليمها متعدِّدَةٌ ودواوينَها جامعةٌ متوفرة وطلبتَها متكثرة».

ويَظَلُّ ابنُ رشدٍ أستاذَ أوربا في عالمَ الفلسفة عِدَّة قرون، وتَكُون «الرشدية» نتيجةً لذلك الإقبال فينحرف أولئك القومُ، تحت هذا الاسم، عن آراء ابن رشد تارة ويَدْنُون منها تارةً أخرى، وهذا ما أفاض «رينانُ» في تحقيقه بحثًا وتمحيصًا رادًّا الأمورَ إلى أسبابها.

وقد عَوَّل رينانُ في وضع كتابه على مؤلَّفَات ابن رشد التي تُرْجِمت إلى اللاتينية والعبرية وإلى ما بَقِيَ من أصلها العربيِّ وهو قليلٌ جِدًّا، كما حَقَّق في جميع ما كُتِبَ عن ابن رشدٍ وفلسفته في جميع لغات العالَم فرَجع الفروعَ إلى أصلها ببراعةٍ تناسب شهرته، فأظهر كتابه الذي نَعْرِض ترجَمته.

والكتابُ ظَهَرَ للمرة الأولى سنة 1852، فَفُتِحَ به أُفُقٌ جديد في حَقْل الدراسات الفلسفية الإسلامية، وصار مُعَوَّلَ جميع الباحثين من جميع الأمم في الفلسفة العربية، ولا سيما فلسفةُ ابن رشد، فلا تَكَاد تَجِدُ مستشرقًا أو عربيًّا يَبْحَث في فلسفة ابن رشد من غير أن يقتبس معارفَ كثيرةً من كتاب رينانَ هذا عادًّا إياه أهمَّ المصادر في موضوعه.

ولا مِرَاء في أن هذا الكتاب لا يَخْلُو من أمورٍ تحتاج إلى إعادة نظرٍ وتقويم وتعديل، شأنُ كلِّ سِفْرٍ من أُمَّهاتِ الأسفار، ولكن يُطْلَبُ ممن يَقُومُ بهذا العَمَلَ أَلَّا يقتصر على كُتُب ابن رشد التي انتهى إلينا أصلُها العربيُّ، فهذه الكتبُ قليلةٌ جدًّا، وَلَا تَكْفِي وحدَها لتناول مِثْل هذا الأمر، وإنما يَقْضِي الإنصاف بأن يُدَقَّق أيضًا في كُتُب ابن رشد التي نُقِلَتْ إلى اللاتينية والعبرية وضاع أصلُها العربيّ لأسبابٍ كثيرة لا محلَّ لذكرها هنا، ويتألف من هذه الكُتب مُعْظَمُ مؤلَّفَات ابن رشد وأهمُّها.

ومن دواعي الأسف أن تَخْلُو اللغةُ العربية من ترجَمةٍ لكتاب رينان الذي هو من أهمِّ ما أَلَّفه الغرب عن فلسفة العرب ونبْرَاسٌ لكلِّ باحثٍ في ابن رشد الذي هو أبعدُ فلاسفة العرب صيتًا وأعظمُهم نفوذًا بين الأمم، وإن من المؤلم حقًّا أن يُكْثِرَ كُتَّابُنا والمؤلفون في الفلسفة عندنا من الاستشهاد بعباراتٍ مقتطفة من كتاب «ابن رشد والرُّشْدية» لرينان، وتناولِ هذه العبارات، وما انطوى عليه هذا الكتابُ من آراء، بالقبول غالبًا والرَّدِّ والنقد أحيانًا، من غير أن يُتَرْجَم هذا الكتابُ كلُّه إلى العربية مع بحثه في ناحيةٍ مهمة من حضارة العرب، من أَجْلِ ذلك نقلته إلى لغتنا مع ما في نقله من مصاعبَ أرجو أن أكون قد ذَلَلْتُها جهد الاستطاعة، فإذا كان التوفيقُ حليفي في هذه المُهِمَّة عَدَدْتُني قد بَلَغْتُ ما أَهْدِفُ إليه[1].

عادل زعيتر

نابلس

(1) وهنا ننبه القارئ إلى أن العلامة رينان اقتطف كثيرًا من العبارات العربية الموجودة فأعدنا معظمه إلى أصله العربي، وأما الذي لم نتوصل إلى نصه العربي، بسبب فقدان الأصل غالبًا، فقد ترجمناه من الفرنسية مع وضع إشارة (*) عليه في مواضعه تنبيهًا للقارئ.

تنبيه

نشِرَ هذا الكتابُ للمرة الأولى في سنة 1852، ونُقِّحَ كثيرًا في طبعته الحاضرة، وذلك أنه أمْكَنَ إكمالُ سيرةِ ابن رشد وتاريخِ الرُّشْدية لدى اليهود، ونُقطتين أو ثلاثِ نِقاطٍ من تاريخ الرُّشدية في القرون الوسطى، بفضل دراسة بعض المصادر الجديدة وما قام به السادة مُنْكُ، وجوزيف مُلِّر، وشتَايْنشْنَايْدر[1]، وأمارِي، ودُوزِي، وغُوشِه من مباحثَ حديثةٍ، ونَزَلْتُ عند إرادة بعض الناس فأَدْرجتُ، كذيلٍ لهذا الكتاب، ما لم يُطْبَعْ من نصوصٍ عربية اسْتُنِدَ إليها في بيان سيرةِ ابن رشدٍ ومؤلَّفاته، وكان مسيو مُنْكُ قد أعَدَّ للطبع ثلاثةً من هذه النصوص أي قِطَعًا من ابن الأبار والأنصاريّ والذهبيّ، فاعتمدنا على نسخته في نَشْرِها هنا، ولا يستطيع هذا الزميلُ العالم أن يُعِيدَ النظر في عبارة الأنصاري الصعبة جِدًّا بسبب ذهاب بصره، فتغدو موضَع نقدٍ مؤخَّرًا، فيَكُونُ لي بنصائح السادة دُوسلان ودُوزي ودِرِنْبُرْغ حَوَلها فوائدُ كثيرةٌ إلى الغاية، وأعتقدُ أن هذه القطعة الفريدة ستُقْرَأُ بمُتْعَةٍ من قِبَلَ المتخصصين باللغة العربية لِمَا انطوت عليه من سَجْعٍ رائع، ومن بلاغِ ابنِ عَيَّاش الطريف الذي أدْمَجَهَ المؤلِّف فيها، وليست عبارةُ الذهبيِّ غيرَ تكرارٍ لغيرها من بعض الوجوه، ومع ذلك فقد رأيتُ وجوب إدراجها لِمَا تَحْوِيه من فُرُوق، وأما عبارةُ ابن أبي أُصَيْبَعَةِ فقد استَطَعْتُ أن أنْتفِعَ في أمرها بالمقابلة بين مخطوطين في أُكْسُفُورْد تفضَّل مسيو دُوزِي بإطْلَاعِي عليهما، وأما الوثيقة التي نُشْرَت في الذيل تحت رَقْم 5 فلم يكن لديّ، لتعيين نَصِّها، غيرُ نسخة واحدة ناقصة كثيرًا، وقد تَفَضَّلَت المطبعةُ الإمبراطورية، بكَرَمها المعهود، أن تضع تحت تصرُّف الناشر حروفَ هذه المقتطفات المختلفة مصفوفةً بكلِّ إتقانٍ تَعْرِف أن تأتِيَه في أعمالها المَشْرِقية.

(1) أمكنني أن أرجع إلى كتاب عن المصادر لم يطبع بعد وضعه هذا العالم للمكتبة البودلية، وذلك بفضل مستر مكس ملر الذي استنسخ لي فصل هذا الأثر الخاص بابن رشد.

وقد عُنِيتُ كلَّ العناية بما تَفَضَّلَ به نُقَّادٌ أَثْبَاتٌ، ولاسيما مسيو هنري رِيتِّر، من إرسالِ ملاحظاتٍ إليَّ منذ الطبعة الأولى، ومن ذلك فإنني لم أستطع أن أُغَيِّرَ وِجهة نظري حِيَالَ أصولِ الفلسفة العربية على العموم وطابِعها، فَتَراني أُصِرُّ على اعتقادي أنه لم يسيطر على إيجاد هذه الفلسفة أيةُ فِرْقةٍ كبيرة من فِرَقِ العقائد، وذلك أن العرب لم يَصْنَعُوا غيرَ انتحال مجموع الموسوعة اليونانية كما عَوَّلَ عليه العالمُ بأَسْرِه حَوَالي القرن السابع والقرن الثامن، وذلك أن العِلْم اليونانيَّ مَثَّلَ، لدى السريانِ والأنباطِ وأهل حَرَّان والفرس الساسَانيين، دَوْرًا كثيرَ المشابهة للدَّوْرَ الذي يُمَثِّلُهُ العِلْمُ الأوربيُّ في الشرق منذ نصف قرن، فلما اطَّلَعَ العرب على هذا الصنف من الدِّرَاسَاتِ وَجَدُوا في أرسطو المعلَم الثَّبَت، ولكنْ من غير أن يختاروه، وذلك كمدرسةٍ ما في القاهرة تُدَرِّس الهندسةُ والكيمياءُ فيها وَفْقَ مؤلفينا من غير أن تكون قد أُدِيرَتْ عن تفضيلٍ لهؤلاء المؤلفين من الناحية النظرية، ومن الحقِّ البالغ أن يقال، من جهةٍ أخرى، إن الفلسفة العربية، حين اتساعها على أساسٍ نَقْلِيٍّ، انتهت، في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر على الخصوص، إلى إبداع حقيقيّ، وهنا أجِدُني مستعدًّا للتسليم في أمورٍ، أي أنني، عندما عدت إلى تتبع آثار هذه الحركة العلمية الجميلة بعد فَتْرَة عشر سنين، وجدتُ أن المقام الذي جَعَلْتُ لها هو دون ما تستحقُّ، فَعَظُم ابنُ رشدٍ في نظري أكثرَ من أن يَصْغُر، وحاصلُ القول أن الأُفُقَ العقليَّ الذي مَثَّلَه علماء العرب حتى أواخرِ القرن الثاني عشر أرفعُ من أُفُق العالَم النصرانيّ، بَيْدَ أنه لم يُوَفَّقْ للمرور في المعاهد ما أقام علمُ الكلام حاجزًا تتعذَّرُ مجاوزتُه من هذه الناحية، فبقي الفيلسوفُ المسلم هاويًا أو موظفَ بَلاطٍ، ثم ألقى التعصبُ رُعْبًا في الملوك فتوارت الفلسفة وأُبِيدَت المخطوطات بأمرٍ مَلَكِيّ، وذَكَرَ النصارى وحدَهم أنه كان لدى الإسلام علماءُ ومفكرون.

وعندي أن هناك أَطْرَفَ درس ينشأ عن هذه القصة، وذلك أن الفلسفة العربية تُعَدُّ مثالًا وحيدًا تقريبًا لثَقافةٍ بالغةِ السموِّ حُذِفَتْ بغتةً تقريبًا من غير أن تترك آثارًا، ونُسِيَتْ تقريبًا من قِبَل الأمة التي أبدعتها، وفي هذه الحال يكُون الإسلام قد كَشَفَ عما هو ملازمٌ لعبقريته لزومًا عُضَالًا، وكذلك كانت النصرانيةُ قليلةَ الملاءمة لنشوء العِلْم الوضعيّ، فوُفِّقَتْ لتعطيل هذا العلم في إسبانيا وعَوْقِه في إيطاليا كثيرًا، ولكن من غير إطفاءٍ له، فانتهتْ حتى أعلى فروعِ الأسرةِ النصرانية إلى إصلاح ما بينها وبينه، وإذْ لم يستطع الإسلام أن يتحول وينتحل أيَّ عنصرٍ من الحياة المدنية والعَلْمانية فقد نَزَع من جَوْفه كلَّ أصلٍ من الثَّقافة العقلية، أَجَلْ،

كُوفِحَ هذا المَيْلُ المُقَدَّرُ ما بَقِيَ الإسلامُ قبضةَ العرب الذين هم عِرْقٌ لطيفٌ أريبٌ جِدًّا، أو قبضةَ الفرس الذين هم عِرْقٌ كثيرُ الإدراك للبحث النظريّ، بَيْدَ أن ذاك المَيْلَ ساد من غير أن يوجد ما يوازنه بعد أن تَسَلَّم قيادةَ الإسلام أقوامٌ من البرابرة كالترك والبربر وغيرهم، فهنالك دخل العالَمُ الإسلاميُّ دَوْرًا من الغِلْظَة العمياء لم يَخْرُج منه إلا ليَقَعَ في نَزْعٍ كئيبٍ حيث يَنْتَفِضُ تحت أعيننا.

وعلى العكس لم أستطع أن أَجِدَ، حينما أعدتُ النظر في سابق حكمي حِيَال مدرسة بادُو، أنني كنتُ شديدًا جِدًّا، فإذَا عَدَوْتَ بعض النُّجَبَاء لم تَجِدْ مدرسةَ بادُو غيرَ امتداد السُّكُلَاسِيَّة[1] المنحطة إلى قلب الأزمنة الحديثة، فهي، بدلًا من أن تكون عاملًا في تقدم العلم ضَرَّتْه بتأييدها المؤلفين الغابرين الْمُتَعَوِّقين، والخلاصةُ أن الرُّشدية البادُوِيَّة هي فلسفةُ الكُسَالَى، ولا نستطيع أن نُورِد دليلًا أسطعَ منها على الخطرِ في تعليم الفلسفة في المعاهد العلمية على أنها علمٌ مستقلٌّ، فتعليمٌ مِثْلُ هذا يؤدِّي دائمًا إلى الذهاب فريسةَ الرُّتين[2]، ويَغْدُو شؤمًا على تقدُّم العلم الوَضْعِيِّ، أَوَلَا يَجْدُرُ أن نَذْكُرَ، بالحقيقة، أن وِجْهَةَ غَليله العلميةَ العظيمةَ صَدَرَتْ عن فُلورَنسا الشِّعْرِية الخفيفة، لا عن بادُو العالِمة؟ ومن الحقِّ أن يقال: إن كلَّ سِكُلَاسِيٍّ عدوٌّ خَطِرٌ للحقيقة وَفْقَ تعبير نِيزُولْيوس، وكلُّ منطقٍ مُجَرَّد، وكلُّ ما بعد طبيعةٍ مُجَرَّد، يَذْهبان إلى إمكان الاستغناء عن العلم يُعَدَّان عائقًا لتقدم الذهن البشريِّ لا مَحَالة، ولاسيما عندما تُعَبِّئُ المُنْظَّمَةُ نفسَها وتَجِدُ في ذلك داعَي وجودها فتَجْعَلَ منهما تعليمًا تقليديًّا.

(1) Scolastique، وهي الفلسفة الكلامية.
(2) La routine: النمطية.

obeikan.com

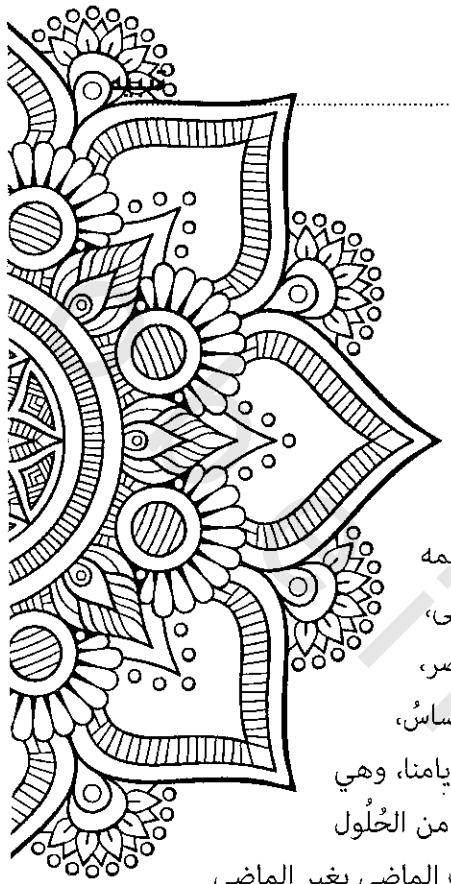

مقدمة المؤلف في الطبعة الأولى

إذا ما قَصَرْنا البحث في تاريخ الفلسفة على النتائج الوضعية التي يُمْكِنُ تطبيقها على احتياجات زماننا مباشرةً وَجَبَ أن يُعَابَ موضوعُ هذه المباحث بكونه عقيمًا تقريبًا، وأَعُدُّني أولَ من يعترف بأنه لا يُوجَدُ ما نتعلَّمه، أو نتعلَّمه تقريبًا، من ابن رشد، ولا من العرب، ولا من القرون الوسطى، وذلك أن المُعْضِلَات التي تَشْغَلُ بال الإنسان في الوقت الحاضر، وإن كانت عينَ التي ساورتْه في كلِّ زمانٍ من حيث الأساسُ، تُبْصِرُها خاصةً بعصرنا من حيث الشكلُ الذي تَظْهَر به في أيامنا، وهي من الخصوصية بعصرنا ما لا تَجِدُ معه غيرَ قليلٍ، إلى الغاية، من الحُلُول القديمة التي لا تزال صالحةً للتطبيق، ولِذَا لا يَجُوز أن يطالبَ الماضي بغير الماضي نفسِه، وقد ارْتَفَعَ شأنُ التاريخِ السياسيِّ منذ كُفَّ عن البحث فيه عن دروس الكِياسة والأخلاق، وقُلْ مِثْلَ هذا عن تاريخ الفلسفة الذي تقوم فائدته على صورة تطورات الذهن البشريِّ المتعاقبة التي تُسْتنبط منه أكثرَ مما على المعارف الوضعية التي تُسْتَخْرَج منه.

وصفةُ القرنِ التاسعَ عَشَرَ الفارقةُ هي أنه أقام المنهاجَ التاريخيَّ مقامَ المنهاجِ العَقَديّ في جميع الدراسات الخاصة بالذهن البشريّ، وعاد النقدُ الأدبيُّ لا يكون غيرَ بيانٍ لمختلف أشكال الجمال، أي عَرْضٍ للطرق التي حَلَّ بها مختلفُ أُسَرِ الإنسان وأجيالِه مُعْضِلَة الجمال، وليست الفلسفةُ غيرَ صورةِ الحلول المقترحة لفكِّ المعضلة الفلسفية، وعاد لا يَنْبَغي لعلم اللاهوت أن يكون غيرَ تاريخٍ للجهود التِّلْقَائية التي يحاوَلَ بها حلُّ المعضِلَة الإلهية، والواقعُ أن التاريخ هو الشكلُ اللازمُ لعلم كلِّ ما هو خاضعٌ لسُنَن الحياة المتقلبة المتعاقبة، فعلمُ اللغات هو تاريخُ اللغات، وعلم الآداب والفلسفة هو تاريخُ الآداب والفلسفة، وكذلك علمُ الذهن البشري هو تاريخُ الذهن البشريّ، لا تحليلُ دواليبِ الروحِ الفرديّ، ولا يَنْظُر علمُ النفس

إلى غير الفرد، وهو يتأمله مجرَّدًا مطلقًا كموضوعٍ دائم مطابقٍ لنفسه دائمًا، والشعورُ، في نظر النقد، يَجْري في الجنس البشريّ كما في الفرد، ويَكُون له تاريخُه، ويقوم أعظمُ تقدم في النقد على إقامة مَقُولَةِ التحولِ مقامَ مَقُولَةِ الوجود، وعلى إحلال مبدأ النسبيّ محلَّ مبدأ المُطْلق والحركةِ محلَّ السكون، وكان كلُّ شيءٍ يُعَدُّ في الماضي موجودًا، فيَدُورُ البحث حَوْلَ الفلسفة والفقه والسياسة والفنِّ والشعر على وجهٍ مُطْلَق، والآن يُعَدُّ كلُّ شيء في طريق التحول، ولا يَعْنِي هذا أن السَّيْرَ والنشوءَ لم يَكُونا سُنَّةً عامة كما في الوقت الحاضر، فالأرضُ كانت تَدُور قَبْل كُوبِرْنِيكَ وإن لم يُشْعَرْ بحركتها، وتَسْبقُ الفَرْضِيَّاتُ الكُنْهِيَّةُ فَرْضِيَّاتِ الحوادث دائمًا، ويَكُون التمثالُ المصريُّ الجامدُ اللاصقةُ يداه بالرُّكبتين سابقًا لازمًا للتمثال الإغْريقيِّ ذي الحيوية والحركة.

فمن وِجهة نظر علم النقد تَرَى في تاريخ الفلسفة أنه يُبْحَثُ عن التاريخ أكثرَ مما عن الفلسفة حَصْرًا، ولا مِرَاءَ في أن الفلسفة العربية أمرٌ واسعٌ في حَوْلِيَّات الذهن البشريّ، ولا يجوز، في عصرٍ طريفٍ كعصرنا، أن نَمُرَّ من غير أن نَرُدَّ إلى هذه الحَلْقة من المَأْثُور كلَّ اعتبارٍ لها، ومع ذلك فلابُدَّ من التسليم، مُقَدَّمًا، بأن هذه الدِّراسة لن تُسْفِرَ، تقريبًا، عن نتيجةٍ يُمْكِنُ الفلسفةَ الحديثة أن تُسِيغَها مُنْتَفِعَةً، ما لم تكن نتيجةً تاريخية، وليس العِرْقُ السامِيُّ هو ما يَنْبَغِي لنا أن نطالبه بدروسٍ في الفلسفة، ومن غرائب النصيب أَلَّا يُنْتِجَ هذا العِرْقُ، الذي استطاعَ أن يَطْبَع على بدائعه الدينية أَسْمَى سِمَات القوة، أَقلَّ ما يَكُون من بواكيرَ خَاصةٍ به في حَقْلِ الفلسفة، ولم تَكُن الفلسفةُ لدى الساميين غيرَ استعارة خارجية صِرْفَة خالية من كبير خِصْبٍ، غيرَ اقتداءٍ بالفلسفة اليونانية، ومِثْلُ هذا يُقال عن فلسفة القرون الوسطى، وليست القرونُ الوسطى، البعيدةُ الغَوْر البالغةُ الابتكار الوافرةُ الشِّعر في صَوْلة حماستها الدينية، غيرَ تَحَسُّسٍ في الظلام طويلٍ، غيرَ تَلَمُّسٍ واسعٍ في ميدان الثقافة العقلية، رجوعًا إلى مدرسة الفكر النبيل العظيمة، أي إلى القرون القديمة، ومن البعيد أن يكون عصرُ النهضة، كما قِيلَ، ضلالًا في الذهن البشريّ التائه وراءَ مَثَلٍ أجنبيٍّ عالٍ، بَلْ عَوْدٌ إلى مأثور الإنسان المتمدن، ولِمَ يُلَامُ عصرُ النهضة والأزمنةُ الحديثة على صنعهما، عن بصيرةٍ ودراية، ما كانت تصنعه القرونُ الوسطى بلا نَقْد؟ وهل يَجْدُر تَفْضِيلُ دراسة أرسطو وَفْقَ تَرْجَمات ممقوتة على دراستها في النصوص الأصلية؟ وهل يناسب تَفْضِيلُ معرفة أفلاطون وَفْقَ شروح تِيمِهِ الرديئة،

أو وَفْقَ شواهدَ مُبْتَذلةٍ، على دراسته في مجموعة آثاره؟ وهل يَليقُ تفضيلُ الْعِلْم بأُوميرُوسَ في دِكْتيسَ ودارِسَ على مطالعة الإلياذة والأُوذِسَّه؟

إن الشرقَ السامِيَّ والقرونَ الوسطى مَدينان لليونان بكلِّ ما عندهما من الفلسفة ضبطًا، ولِذَا فإذا ما دار الأمرُ حَوْلَ اختيارِ حجةٍ فلسفية لنا في الماضي كان لليونانية وحدَها حَقُّ إلقاء دروسٍ علينا، لهذه اليونانية الأصلية المخْلصة في تعبيرها، الخالصةِ الكِلاسية[1]، لا يونانيةِ مصرَ، ولا يونانيةِ سورية، التي شُوِّهت بخِلْطٍ من العناصر الغليظة، وعلى العكس إذا ما أغضينا عن مطالبة الماضي بمذاهبَ، ولم نطالِبْه بغير الوقائع فإن أدوار الانحطاط وتوحيدِ مختلف المذاهب والآراء وأدوارَ الانتقال والتحريفِ البطئ تَكُون أمتَع لنا من أدوار الكمال حيث يَلُوحُ، في بعض الأحيان، امِّحَاءُ بروزِ العبقريةِ الأصليِّ تحت كمال الشكل ومقياسِ الفكر الدقيق.

وقد بَدَتْ لي هذه الملاحظاتُ أمرًا ضروريًّا لاتِّقَاءِ لوم على عنايتي البالغة بمذهب عاد لا يُحَرِّك ساكنًا فينا، ولكنني، وقد قُلْتُ إن تاريخ الذهن البشريّ أعظمُ حقيقةٍ فُتِحَتْ لمباحثنا، أَجِدُ أن كلَّ محاولةٍ لإنارة ناحيةٍ من الماضي تَنْطَوِي على مَغْزًى واعتبار، أي إن معرفةَ ما فَكَّرَ فيه الذهنُ البشريُّ من مُعْضِلَةٍ أهمُّ من تكوين رأيٍ عن هذه المعضِلة، وذلك أن المسألة إذا ما تَعَذَّرَ حَلُّها كان عملُ ذهن الإنسان لحلِّها أمرًا تجريبيًّا له مُتَعتَهُ، وأنه إذا ما افْتُرِضَ الْحُكْم على الفلسفة بأنها ليست سوى جُهْدٍ أزليٍّ باطلٍ لتحديد ما لا حَدَّ له لم يُمْكِنَّا أن نُنْكِرَ، على الأقلِّ، اشتمالَ هذا الجهد، لدى النفوس ذواتِ الفُضُولِ، على منظرٍ جديرٍ بأعلى انتباه.

وقد منعتُ نفسي، على العموم، من إظهار شعوري حَوْل المعضِلات التي يَسُوقني الموضوع إلى مَسِّها، أو إنني صنعتُ ذلك بما يُمْكِن من الاعتدال مقتصرًا على عَرْضِي الدقيقِ لمُشَخِّصَات المذاهب وفَوَارقها، ونَجِدُ شَبَهًا بين المذاهب في الفلسفة والأحزابِ في السياسة، ولا يَنْفَعُ المنهاجُ الشخصيُّ للمؤرخ، الذي يُحَدِّث عن تنازع المذاهب والأحزاب، لغير تَزييف حُكْمِه في الغالب وإفساد ما لتصويره من التأثير، ومن شأن الْحُكْم الانتقاديِّ أن يَنْفِيَ الْحُكْمَ العَقَدِيَّ، وما يُدْرِيك أن دقة الذهن لا تقوم على غير الامتناع عن الاستنتاج؟ لاحِظوا جيدًا أن

(1) Classique.

ذاك هو النقد، لا عدمُ الاكتراثِ ولا الارتيابيةُ، أي إن الإنسان لا يكون مؤرخًا إلا إذا عَرَفَ أن يَتَمَثَّلَ في نفسه، مختارًا، مختلفَ أمثلة الحياة في الماضي كيما يُدْرِكُ أصلَها ولكي يَجِدَها، بالتناوب، شرعيةً ومَعِيبَةً، جميلةً وشنيعةً، مُحَبَّبَةً وبغيضة.

وأَعُدُّني قَد نَزَعْتُ من هذا الأثر أكرمَ نُصْحٍ إذا لم أذْكُر أنني أقدمتُ على وَضْعِه بإشارةٍ من مسيو فِيكْتُور كُوزَان ومسيو فِكْتُور لُكْلِير، وهو، على ما يُمْكِنُ أن يَبْدُوَ غيرَ أهلٍ للطف الذي شَجَّعَ به هذان المِفْضَالَان عليه، أَطْمَعُ أن يُرَى اشتمالُه على نتيجةٍ ضئيلةٍ للحركة التي طَبَعَاها على دراسات تاريخ الآداب والفلسفة، وكذلك أَعُدُّني قد قَصَّرْتُ في أَعزِّ ذكرياتي إذا لم أذْكُرْ هنا أولئك الذين كان من فَضْلِهم إغْنَائي تاريخَ الرُّشْدِية البادُوِيَّة ببعض الوثائقِ غير المطبوعة، أيْ كُتُبِيَّ القديس مَرْقُس بالبندقية: السيدَ الأبَ فَلنْتينِلِّي، وأستاذَ الفلسفة بجامعة بادُو: السيد بَلْدَسَّار بُولِي، والعالَم السيد صَمُوئيل لُوزَاتُّو، وغيرَهم ممن حَمَلُوني على تقدير القِرَى الإيطاليّ، وأخيرًا أجِدُ من الواجب أن أُغْرِب عن شكري لعُضْوَيْ أكاديميةِ مَدْرِيد، السيدين توما مُونُوز وجُوزِه دَلْفَا، الذين نِلْتُ من الإِسْكُورْيال بفضلهما نسخةً من وثيقة عربية بالغةِ الأهمية في الموضوع الذي يَشْغَلُ بالي.

ولم يَفُتْنِي أن أَذْكُرَ في تعليقاتي ما أنا مَدِينٌ به للآثار الرائعة التي كانت فلسفةُ أرسطو موضوعًا لها بيننا، وأَخَصُّ ما يُرَى مقدارُ ما انتفعتُ به من مباحث مسيو أُورِيُو في الفلسفة السُّكُلَاسِيَّة، ومن مباحث مسيو مُنْكَ في الفلسفة العربية واليهودية في القرون الوسطى، وإذا عَدَوْتَ المقالةَ الجوهرية التي أَدْرَجَها مسيو مُنْكُ في «مُعْجَم العلوم الفلسفية» عن ابن رشد وَجَدْتَه قد جَمَع حَوْلَ هذا الشارح وآلهِ وثائقَ مُمْتَعةً كان يَنْشُرُها لو لم تُقْطَع أعمالُه العلمية بالحادث المشؤوم، وبما أنني قُمْتُ بمؤلَّفي من وِجهةِ نظرٍ أخرى فإن من البعيد أن يَجْعَل أثري هذا أثرَه غيرَ مفيد، ولن يُسْفِرَ أثري عن غير جَعْلِ أثره مرغوبًا فيه إذا وَقَع ما نَرْجو من عدم حرمان العلم نتائجَ حُقُّ له أن ينتظرها من نَفْسٍ بالغةٍ تلك الأَلْمَعِيَّةَ وذلك الفضلَ الْمُجَرَّبَ[1].

(1) لقد أنجز مسيو منك بعد ذلك بعض ما وعد بنشره ثانية، مع إضافات مهمة، مقالته عن ابن رشد في «مقالات عن الفلسفة اليهودية والعربية»، باريس، 1859.